فلسفة التربيـــة

كما يراها فلاسفة الغرب

للأستاذ محمد حسن ظاظا

— ٣ —

« خلق الله تعالى الانسان وأودعه بذرة كماله المنشود ، ثم تركه للعلم يسعى فيه هـذه البذرة حتى إذا ما اشتد ساعده واصل تربية نفسه بنفسه محققاً إرادة السماء »

Kant, « Traité de Pedagogie »

بينت فى المقال السابق ما بين الفلسفة والتربية من علاقة ، وذكرت فحوى فلسفة التربية الحديثة لدى جون ديوى ومدرسته وسأتناول فى هذا المقال معنى التربية وضرورتها وقدرتها :

أما معناها فكان وما زال موضع خلاف فى التصور والتعبير ، فمثلاً دائرة معارف Chambet تقول : « إن كل شيء يعلم الإنسان وإن التربية على الخصوص هى صب الأطفال فى قالب خاص » (أنظر A Source Book of Education فصل كيف نتصور التربية) ، ويقول Stein : « التربية تطور متناسق للملكات يتفق وطبيعة العقل » ؛ هذا بينما يقول بستالوتزى : « كل عمل المعلم هو أن يمنع ما يعرقل طبيعة الناشئ حتى تستطيع أن تنمو نمواً طبيعياً على مثال صورة الله تعالى » ، وبينما يقول ديوى : « التربية هي الأسلوب الذى يُصير المرء في امتلاك متواصل متزايد لنفسه ولقواه ، بواسطة الاشتراك المتواصل المتزايد فى أعمال الجنس »

هذا ويعلل لنا الأستاذ أمين مرسى قنديل عدم الاتفاق على تعريف جامع مانع للتربية بقوله : « التربيـة من حيث هى علم لم يستقر بعد ، فهي لا تزال في دور التحول والتكوين » (أنظر أصول التربية والتعليم ج ٢ ص ٣٥)

ومهما يكن من شيء فالأستاذ هورن Horn يفهم التربية على نحوين : نحو عام هو تلك « العملية » الطويلة الهائلة التى يتعلم فيها الجنس البشرى تحت رعاية ذلك « الروح الأبدى » المتجلى فى الطبيعة والانسان ؛ ونحو خاص هو « عملية » المدرسة منذ روضة الأطفال إلى نهاية المدرسة العليا . ولذلك كانت دراسة التربية من حيث معناها العام دراسة للمدنية بأجمعها ، ودراستها من حيث معناها الخاص دراسة لتاريخها ومثلها الأعلى وفنها العملي وفلسفتها (انظر A Philos. of Educ)

هذا عن معناها . وأما ضرورتها فها هو « هربارت » يقول : « إنها (أى التربية) مهمة دينية ورسالة مقدسة ! » وهاهو « كانت » يزعم « أن الانسان لا يصير إنساناً إلا بها » ! ! ولاشك أنا نستطيع أن نلمس ضرورتها فى نواح عديدة أهمها الثلاث الآتية :

١ — الناحية النفسية

ذلك أنا إذا أخذنا طفل « الرجل المتمدن » وألقيناه فى إحدى الغابات ، وفرضنا أن الطبيعة سترعاه حتى يستطيع أن يطعم نفسه ويدافع عنها ، لوجدنا أن نشأته بين الأشجار ستكون بدائية [1] بحتة ترجع بالانسانية آلاف السنين إلى الوراء

وكذلك قد لوحظ أن الطفل الاسكتلندى الأصل إذا ما انتقل إلى الوسط الفرنسى تغير كثيراً وأضحى غير زملائه في وسطه الأول

ومعنى هذا أن الوراثة الاجتماعية تعدل فى الوراثة البيولوجية تعديلا خطيراً . ومادام الأمر كذلك فمجال « الإمكان » فى التربية إذن فسيح ، ومجال سلطانها على مستقبل الناشىء ، بل والعالم كله ، من حيث السعادة والشقاء ، والتقدم والتأخر ، إذن عظيم وخطير ! يؤيد ذلك قول ثورندايك فى The Educ Psycho « إن التربية أعظم مساعد للناس جميعاً على تحقيق خيرهم المطلق » وقول الأستاذ آدم سميث فى The Wealth of Nat « إن الفرق فى كثير من الأحيان بين الفيلسوف ورجل الشارع ناشىء فى العادة من التربية أكثر مما هو ناشىء من الطبيعة » ، وقول هيوم « هما المران والممارسة ينشئان العامل الماهر »

بل إن البعض ليذهب إلى أكثر من ذلك ، فهم يدعون أن علم الوراثة سيستطيع أن يقدم للتربية فى الغد ما يمكنها من « خلق » العقل والجسم المنشودين !!

٢ — الناحية الاجتماعية

والانسان فضلا عما تقدم كائن اجتماعى . ولما كانت الحياة في ذاتها نمو وتطور وتجدد كانت التربيـة هي الاداة الفعالة التى

(١) Primitive

يستطيع المجتمع أن يحفظ بها كيانه ويجدد نفسه . وكلما تعقدت أساليب الحياة في المجتمع احتيج إلى تربية نظامية دقيقة ، والأفراد يموتون ولكن الجماعة تبقى ! ، والصغير محتاج — كيما يواصل حياة الجماعة فيما بعد — إلى أن يأخذ من الكبير الذى سيموت تاركاً له التراث الأكبر ! ، فيجب إذن « ترقيع » الجماعة دائما ! وإلا فلا يجد الصغير درعاً يساعده على البقاء ! ومعنى هذا أن التربيــة في الجماعات المتمدنة قد أصبحت تقوم مقام الصلاحية للبقاء في الحيوانات والجماعات التوحشة !

زد على هذا أن الجماعة لكيما تكون وحدة ناجحة سليمة يجب أن تتحد فى المطامح والعقائد والفهم العام . وليس كالتربية وسيلة لتحقيق مثل تلك الوحدة الناجحة . ذلك أنها ترتب الميول المراد تنميتها وتساعد عملية النمو ؛ كما أنها تطهر وترفع مستوى العادات الاجتماعية القائمة ؛ وتوجد بيئة متوازنة ، هى المدرسة ، تعد الطفل لمواجهة البيئة الكبرى ...

٣ — ناحية النمو

ويقول السير جون آدمز إن أغلب تعاريف التربية تحوى معنى النمو . فكومنيوس وبستالوزى مثلاً يتفقان في أن العقل كالبذرة ينمو من الداخل . والحق أن الحياة فى الفرد وفى المجتمع وفى تاريخ الكائنات جميعاً ليست إلا عملية نمو هائلة متسلسلة ينطق بها لسان التطور ؛ ويحتاج النمو الصالح إلى مرونة تجدها التربية فى الطفولة والشباب . وبهذه المرونة نتعلم من التجربة ونكتسب العادات الآلية التى تضمن لنا السيطرة على الطبيعة ، وحسن التكيف فى الموقف الجديد ، والاختراع والابتكار والخلق والإبداع

وما دام الأمر أمر نمو فإن المدرسة الحديثة تعارض فكرة الإعداد « للغد فحسب » كل المعارضة حتى لاتصرف المتعلم عن فرصة الحياة الحاضرة بما فيها من ميزات

يقول « ديوى » في « المدرسة والاجتماع ترجمة الأستاذ قندلفت » : « لايتاح لأمة أن تفى حق الأمانة لنفسها إلا بأن تكون أمينة على إنماء أفرادها التى تتألف منها . ولا عامل كالمدرسة ينيلها ماتريد »

* * *

بقى بعد ذلك أن نتكلم عن قدرة التربية كما أشرنا إلى ذلك من قبل . والحق أننا نستطيع أن نتحدث هنا دون أى حرج . وها هو ذا إرازمس Erasmus يقول إنه لو سيطر على التربية بضع سنوات لغير الدنيا . وبسمارك يردد : « إن من يدير المدرسة يوجه مستقبل الأمة ... » وقديماً حاول إفلاطون أن يخلق المدينــة السعيدة الفاضلة بالتربيــة . وحديثاً يسود الانجليز ويستمدون عظمتهم من تربيتهم لا من جيوشهم وأساطيلهم .

وأخيراً إذا كان العالم يسير اليوم متشائماً نحو الحرب والدمار فلأنه قد نشأ نفسه وأسقاه على أساس من تربيــة فلسفتها البقاء للأصلح ، وقوامها الوطنية الكليلة والقومية الحمقاء !!! ؟

لذلك كله يرجو دعاة السلام والاصلاح من التربيــة خيراً جزيلا ؛ ويحاولون جهدهم أن يستغلوا « امكانات » علم النفس في تعديل الغرائز وتهذيبها والتسامى بها أيما استغلال ، ولكنهم يشعرون — وأشعر معهم — أنهم لا يزالون بعد في حاجة قصوى إلى إقناع الساسة والشعوب بفلسفتهم الجديدة القائمة على أن العالم هو الوطن الأكبر ، وعلى أن الانسانية في التعاون والتعاضد والبناء والتشييد ، لا في التنابذ والتحاسد والتخريب والتدمير ..!!

فهل يستطيعون لهــذا الاقناع سبيلا وأبواق الحرب تهرف في كل مكان بدعاية مجنونة ، ورجال السلاح ينفثون سمومهم وأحقادهم ومطامعهم في نفوس بريئة لا تملك النقد ولا تعرفه ؟ ؟

وكيف السبيل لذلك الاقناع ورجال الحرب يسيطرون على الحكومات ويوجهون برامج التعليم إلى حيث تتحقق فلسفتهم الجوفاء ؟ ؟

ومصر في عصرها الديموقراطى المستقل الراهن أترى للتربية فيها فلسفة ناضجة ؟ ؟ وإذا كان لها فلسفة ما : أفلا تتطلب هذه الفلسفة تعديلا يلتئم وحاجات العصر الجديد من ناحية ، ويتمشى وحقائق علوم التربية الحديثة من ناحية أخرى ؟ ؟

ذلك ما أدعوك للتفكير فيــه أيها القارئ العزيز على ضوء الحقائق التى ذكرتها وسأذكرها ؛ وما أعدك بتناوله بعد الفراغ من هذا الموضوع

محمد حسن ظاظا
مدرس الفلسفة بالمدارس الثانوية